الدين والمجتمع المدني في السيرة النبوية
الإخاء نموذجا

الأستاذة: أحلام عباسي[1]

مدخل:

حظيت السيرة النبوية باهتمام كبير من قبل الباحثين مسلمين كانوا أو غير مسلمين،إذ لا يعلم رجل في تاريخ البشرية نقلت تفاصيل حياته، ودقائق تصرفاته كما نقلت تفاصيل حياة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ودقائق تصرفاته.ولا يعلم سيرة رجل نقحت وحققت ومحصت،كما فعل بسيرة رسول الله.

وقد تنوعت الكتابات عنه صلى الله عليه وسلم فشملت جميع المجالات وهمت كل التصرفات من الميلاد إلى المبعث فالممات، فدرسوه عليه الصلاة والسلام طفلا بكل أطوار الطفولة من الولادة إلى الرضاع، فالكفالة إلى حياة الكدح حتى صار يافعا..، ثم نبيا مبعوثا بأول ما نزل به الروح الأمين على روعه صلى الله عليه وسلم، ثم زوجا في معاملته مع زوجاته، فأبا، فداعيا، ثم قائدا لأول دولة في الإسلام وعاصمتها المدينة المنورة، وكل جانب من هذه الجوانب خصص له مؤلفات يصعب حصرها أو إحصائها وقعت من باحثين مسلمين ومستشرقين على السواء، أجمعوا أن هذا الرجل العظيم استحق بحق أن يكون منقذ البشرية من الضلال، ضلال الجهل والجور إلى نور الإسلام وهديه.

ومدارسة سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ليس ترفا فكريا بل أمرا فوقيا من رب العالمين الذي قال في محكم تنزيله : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)[2] هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي صلى اللّه عليه وسلم في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته،فجعل عز وجل التأسي بسيرتهصلى الله عليه وسلم دينا يلتزم به المؤمنون، والالتزام بهاعنوان حب العبد لله، لهذا المقتدي بسيرة

---

1 باحثة في الدراسات الإسلامية، المملكة المغربية

2– سورة الأحزاب الآية 21.

الرسول الملتزم بها قال تعالى:(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[3]

وسأحاول إن شاء الله من خلال هذه الورقة الموسومة ب: "نظام الإخاء وأثره في تحقيق التوازن الاجتماعي "أن ابرز جانبا من شخصية المصطفى صلى الله عليه وسلم القيادية محاولة أثناء العرض الإجابة عن تساؤلات منها: كيف تصرف عليه الصلاة والسلام مع الوضع بالمدينة، تلك المنطقة التي تختلف عن مكة جغرافيا وسياسيا واقتصاديا ؟. كيف تعامل عليه الصلاة والسلام مع المجتمع الجديد ذو التشكيلات والطوائف المتعددة ؟ وما هي الآليات التي اعتمدها في استتباب الأمن الداخلي بالمنطقة؟

دستور المدينة وائتلاف عناصر الدولة:

عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على بناء دولة إسلامية مركزها المدينة المنورة، دولة توافرت على جميع العناصر التي سَنها فقهاء القانون الدستوري وهي:

إقليم: (le territoire) يحتضن مجموعة بشرية، تخضع لسلطة سياسية منظمة وفاعلة.

المجموعة البشرية: العنصر السوسيولوجي: إذ لا بد من وجود مجموعة بشرية تعيش فوق الإقليم. وقد ميز فقهاء القانون الدستوري بين ثلاث عناصر للمجموعة البشرية وهي:

السكان.الشعب.الأمة.

السلطة الفعلية – المنظمة – ووظائف الدولة، وهو ما يطلق عليه المُشَكّل للدولة أو لفظ الهيئة الحاكمة ذات السيادة وهناك من يعبر عنه بالسلطة السياسية أو تنظيم السلطات العامة، وهو ركن أساسي ومحوري بدونه لا تتكون دولة([4]).

وقد تحققت هذه العناصر كاملة عندما هاجر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة (يثرب)، فكانت(الإقليم) الذي احتضن الدولة الإسلامية.

العنصر الثاني: المجموعة السكانية، أو ما اصطلح عليها بالأمة كما جاء في بنود صحيفة المدينة :فقد تكون المجتمع الجديد من طوائف عديدة يمكن تقسيمها إلى :

3- سورة آل عمران الآية 31.

4- القانون الدستوري والمؤسسات السياسية الدكتور أحمد الحضراني الصفحة 56 إلى 71 بتصرف مطبعة سجلماسة مكناس 2005.

طائفة المشركين: فلم يؤمن كل أفراد قبيلتي الأوس والخزرج، وقد كان يوجد عدا الأوس والخزرج ثماني قبائل أخرى كما جاء بيانها في ميثاق المدينة.

قبائل اليهود الثلاثة التي تملك عصب الاقتصاد في المدينة .

طائفة المنافقين الذين رأوا مد الإسلام تتسع رقعته أمامهم بالمدينة فآمنت به أفواههم ولم تؤمن قلوبهم.

جماعة المهاجرين الذين تركوا كل أموالهم وممتلكاتهم بمكة ونزلوا على الأنصار بالمدينة.

جماعة الأنصار الذين بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأموالهم، ومجتمع كهذا أقل ما يمكن أن يقال عنه أنه مجتمع خاص ولذلك التعامل معه يجب أن يكون خاصا.

العنصر الثالث: السلطة الفعلية أو القيادة، فكان للنبي صلى الله عليه وسلم الحل والعقد وبيده تدبير شؤون دولته الفتية .

2- دستور المدينة وأثره في استتباب الأمن :

كان أول ما فعله عليه الصلاة السلام بعد بناء مسجد قباء وإعلاء كلمة الله اكبر، ترتيب البيت الداخلي وتهيئ مناخ من الأمن والاستقرار يبعد عن هذه الدولة الفتن وتربص الأعداء، فالمجتمع الذي لا يربطه رباط قوي، وتختلف فيه طوائفه هذا الاختلاف- كما سبقت الإشارة إلى ذلك أعلاه-، يسيل لعاب القوى الخارجية المتربصة به، وتحاك المؤامرات الخارجية، وتكثر الاضطرابات في داخله، لتضعف كيانه ثم تقوض أركانه وتهدم بنيانه، فكان من حنكة وحكمة النبي صلى الله عليه وسلم وقطعا لدابر الفتن عقد معاهدة (سلام) مع اليهود تحسبا لأي إزعاج أو فتنة، وهو ما يصطلح عليه أصحاب السير(بدستور المدينة)، وقد جاء في هذه المعاهدة كما قال ابن إسحاق:(...وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود، وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط عليهم وشرط لهم).

وقد تضمن هذا الكتاب أو ما يطلق عليه بعض الباحثين المعاصرين (دستور المدينة) سبعا وأربعين بنداً.

ابتدأه صلى الله عليه وسلم بقوله: (هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين، والمسلمين من قريش، (وأهل يثرب) ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس).. "وأن"

يهود ... بني عوف ... وبني النجار ... وبني الحارث ... وبني ساعدة، وبني جشم ... ويهود الأوس... وبني ثعلبة ...أمة مع المؤمنين"[5].

فدل ذلك على أن كل تشكيلات "المجتمع المدني" على اختلاف أصولهم العرقية والدينية أمة واحدة، يقول الدكتور محمد الصلابي عن هذه الوثيقة: (كانت الوثيقة قد اشتملت على أتم ما قد تحتاجه الدولة، من مقوماتها الدستورية والإدارية، وعلاقة الأفراد بالدولة.. فالوثيقة خطت خطوطا عريضة في الترتيبات الإدارية، وتعد في قمة المعاهدات التي تحدد صلة المسلمين بالأجانب ....المقيمين معهم في شيء كثير من التسامح والعدل والمساواة..)([6])، فكانت هذه المعاهدة أو الدستور صيغة قانونية وضعت لبنات للتعامل والتعاطي مع الأخر من دون مشاكل أو عراقيل.

3- نظام الإخاء قواعده ومقاصده :

أما باقي التشيكلات التي يربطها رباط الدين وآصرة الإسلام من المهاجرين والأنصار فقد كان الحل الأمثل هو إنشاء نظام قانوني مدروس يتغلغل في أعماق الحياة، وتتكون على أساسه العلاقات القانونية بما تتطلب من حقوق وواجبات، نظام يستمد مشروعيته من الدين الإسلامي الحنيف وهو نظام الإخاء، يقول ابن إسحاق: آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال : تآخوا أخوين أخوين، وهذا من أقوى السياسات الإسلامية وجاء في القران الكريم:" إنما المؤمنون إخوة بصيغة الحصر"[7]، وهي خطوة عمل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ربط صلة الأمة بعضها بالبعض الأخر، وإحلال رابطة الإخاء ورابطة الدين محل رابطة القبيلة والعصبية القبلية مصداقا لقوله تعالى :(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)[8]، وفيها قرب صلى الله عليه وسلم بين بعض القبائل من المهاجرين والبعض الآخر، كما قرب بين الأوس والخزرج،إذ كانت الحروب بينهما قبل الإسلام قوية طاحنة أنهكت قواهما وقضت على الكثير من أبطالهما أخرها(يوم بعاث)،فجاءت دعوة المصطفى صلى الله عليه وسلم حتى يعيش الطرفان في جو من التآخي والتوافق بعيدا عن الحروب وحالات التنافر.وليس

5- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، لمحمد حميد الله ص 59- 61 بتصرف الطبعة الخامسة 1985م1405هـ دار النفائس .بيروت .

6- السيرة النبوية للدكتور علي محمد محمد الصلابي الجزء الأول ص 581.

7- سيرة الرسول عن طبقات ابن سعد ص 92. 93 دار الفكر للجميع الطبعة الثانية 1969م،

8-سورة الحجرات الآية 10.

هذا فحسب بل آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين العرب والموالي، حيث آخى بين حمزة عمه وزيد بن حارثة، وبين أبي الدرداء وسلمان الفارسي.

وكانت نتيجة ذلك أن تكونت : "أسرة إسلامية " واحدة فلا حمية إلا للإسلام، وسقطت فوارق النسب واللون والوطن وتحققت وحدة الأمة والدولة الإسلامية بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعليه فإن نموذج المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، نموذج رائد في مجال الإخاء الإنساني، بوصفها نواة أساسية لتكوين دولة الإسلام الراشدة،التي قُدَّر لها أن تحمل راية الحق والعدل والإنصاف والمواساة، وأن تكون القدوة الصالحة في انتظام سلوك البشرية، والعيش بين مكوناتها الإنسانية في أمن وأمان، وسلم وسلام، بعيدة عن التعصب الأعمى أو الطائفية الممقوتة،التي كانت –ولا زالت – مصدر كثير من الهرج والمرج، واستباحة الأنفس والأموال والأعراض.سواء قبل الإسلام أو في زماننا هذا يقول الشيخ محمد الغزالي:(ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبيات الجاهلية، فلا حمية إلا للإسلام،وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن، فلا يتقدم أحد أو يتأخر إلا بمروءته وتقواه،وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الأخوة عقدا نافذا لا لفظا فارغا، وعملا يرتبط بالدماء والأموال، لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر، فكانت عواطف الأخوة والإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الإخوة وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال)[9].

وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على الرشد والكمال النبوي، والنضج السياسي والحكمة المحمدية.

4 – نظام الاخاء ودوره في تحقيق التوازن الاجتماعي[10]

من مسؤولية رئيس الدولة تحقيق التوازن الاجتماعي بين أبناء الأمة الواحدة،ومن مسؤولياته مراقبة الأمة والسهر عليها بما يتوافق وشريعة الله الحاكمة، ومن مسؤولياته كذلك المساواة المطلقة بين أفراد الأمة عامة عند تطبيق العدالة بصرف النظر عن أوضاعهم الاجتماعية أو أحوالهم المادية، لما له من أثر بارز في تحقيق الوحدة والوفاق والوئام، وقد وفق رسول الله صلى الله عليه وسلم في تحقيق هذا التوازن بين المهاجرين والأنصار..حتى امتدح الله تعالى فعلهم وأنزل فيهم قرآنا يتلى إلى يوم القيامة قال تعالى:(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا

9– فقه السيرة لمحمد الغزالي ص 138 الطبعة الثانية 1424هـ/2003م دار الشروق .

10–التوازن الاجتماعي يطلق ويراد به :عدالة توزيع الدخل القومي على أفراد المجتمع الذين ساهموا في تحقيقه. ومن الناحية القانونية فهو التزام يقع على عاتق الدولة

أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[11]، يقول الشيخ محمد رضا : (فالأنصار أكرموا المهاجرين إكراما عظيما ليدفعوا عنهم غوائل الحاجة فكانوا يحرمون أنفسهم لمساعدة إخوانهم في الإسلام على حداثة عهدهم به حتى صاروا مثلا يضرب للتعاون وحسن الخلق)[12]، وهكذا ضرب المسلمون المثل الأعلى في التعاون والاتحاد والتكافل الاجتماعي بحيث نهض القوي بالضعيف، وعاد الغني على الفقير، فلم يدع عاجز ولا مسكين أو صاحب حاجة إلا بادر الأنصار بمد يد العون والمساعدة لإخوانهم المهاجرين الذين تركوا المال والأهل فرارا بدينهم وإتباعا لنهج نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، ومن تلك الصور ما رواه البخاري في صحيحه قال : (حدثنا إسماعيل بن عبد الله قال: حدثني إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده قال :" لما قدموا المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع، فقال لعبد الرحمن : إنني أكثر الأنصار مالا، فأقسم مالي نصفين ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم ؟ فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من إقط وسمن ثم تابع الغدوّ، ثم جاء يوما وبه أثر صفرة (أي زينة) فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "ميهم؟" (سؤال عن حاله) قال: تزوجت، قال: كم سقت إليها؟ قال نواة ذهب– أو وزن نواة من ذهب – شك إبراهيم).[13]

هذه إذا صورة عن رشد القيادة الحاكمة وقت الأزمات، وكيف أنها تصل بأبناء المجتمع إلى نقطة التوازن بلا تفرقة أو تفاوت طبقي، لتضمن بذلك تحقيق أهم أسباب الترابط الاجتماعي بين أبناء المجتمع الواحد بعيدا عن النزاعات القبلية أو النعرات الطائفية،ومن هنا نفهم سر استغفار المهاجرين لإخوانهم الأنصار،كما دل عليه قوله تعالى:(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آَمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)[14] .

11سورة الحشر الآية 9

12– محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم،للشيخ محمد رضا ص 150

13–صحيح البخاري كتاب مناقب الأنصار باب إخاء النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار حديث رقم 3780 .

14– سورة الحشر الآية 10.